الحمام الزاجل فى العصور الوسطى

المتواتر فى كتب المؤرخين المسلمين أن السلطان نور الدين أول من اعتنى بالحمام الزاجل فى الدولة الإسلاميه واستخدمه فى نقل المكاتبات بين مصر والبلاد الشامية ، وأنه نقل إلى تلك البلاد سنة ٥٦٥ هـ (١١٨٩ م) حماماً من مدينة الموصل ، وشيد له — ولا سيما فى مصر بعد أن مد نفوذه عليها بفضل رجاله من بنى أيوب — أبراجاً أقام بها الحراس يرقبون وصول الحمام ليل نهار[١] . على أن الباحث فى تاريخ الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى يلمس بين طيات الكتب شذرات تشير إلى أن المعرفة بالحمام الزاجل ، واستخدامه فى نقل المكاتبات ، ترجع إلى ما قبل عهد نور الدين بكثير فى الدولة الإسلامية ، بل إن اهتمام بعض الدول القديمة بالحمام الزاجل ينقض القول بسبق المسلمين على غيرهم من الدول فى استخدام الحمام لأغراض البريد .

الواقع أن الشرق القديم عرف استخدام الحمام وغيره من الطير لأغراض البريد منذ أقدم العصور . إذ تشير قصة نوح التى ورد ذكرها فى التوراة إلى أن حمامة كانت دليل نوح ومرشده أثناء جريان فلكه فى مياه الطوفان[٢] . وإذا كانت الاكتشافات لم تهتد بعد إلى مكان سفينة نوح ، فإن الآراء التى تثيرها تلك المحاولات تدل على أن السفينة ألقت مرساها بإحدى جهات الشرق . كذلك يقص القرآن نبأ استخدام الهدهد فى نقل الأخبار ، إذ حمل إلى سليمان خبر مملكة سبأ ، ونقل إلى بلقيس رسالة من سليمان يدعوها

---

(١) شهاب الدين بن العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٩٦ .
، ميخائيل بن نقولا الصباغ : مسابقة البرق والغمام فى سعادة الحمام (ترجمه من العربية سلفستر دى ساسى باريس ١٨٠٥) ص ٣٧.

(٢) العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح الثامن ٧ ، ٨ .

فيها إلى الإسلام[١] . وحوالى القرن السادس قبل الميلاد أخذ اليونان عن فارس القديمة[٢] استخدام الحمام الزاجل فى نقل الأخبار ، فأطلقوا الحمام أثناء عقد الدورات الأولمبية ، لإذاعة أخبار المباريات بين البلاد اليونانية[٣] . ويبدو أن الرومان نهجوا تلك السبيل ، إذ بلغ من اهتمامهم بأخبار سباق العجلات فى روما أنهم حملوا معهم حماما زاجلا، يذيعون به أخبار السباق إلى سائر المدن الرومانية[٤] .

أما أول إشارة تاريخية لاستخدام الحمام الزاجل فى الحروب فهى سنة ٤٤ ق . م ، حين حاصر أنطونيوس الشهير مدينة مودينا بإيطاليا الحالية . إذ تبادل القنصل بروتس حاكم مودينا الرسائل مع زميله هيرتيوس خارج المدينة بالحمام الزاجل[٥] . ويبدو أن استخدام الحمام أثناء الحروب شاع فى أوربا الرومانية — بما فى ذلك بلاد اليونان طبعا — إلى درجة جعلت المؤرخ الكبير پلنى يسأل لماذا تقام الأسوار والحراس وتنصب الشباك فى الأنهار ، وللأخبار سبل فى الهواء[٦]؟ ومن المرجح أن أوربا الرومانية التى تلقنت من الشرق طريقة استخدام الحمام الزاجل أثرت بدورها على نظم الحمام الزاجل فى الشرق فى العصور الوسطى ، إذ اكتسب الحمام فى تلك البلاد لقباً آخر هو حمام البطاق . ويبدو أن ذلك تعريب الكلمة اليونانية II IT'AKIOV

---

(١) سورة النمل، آية ١٩ إلى ٣٠ .

(٢) لعل قصص كليلة ودمنة المترجمة عن البهلوية — وهى اللغة الفارسية القديمة — توضح ما كان للحمام من مركز ملحوظ فى فارس القديمة ، إذ وردت فى ذلك الكتاب قصة بأكملها عن الحمامة المطوقة وسربها الذى استطاع بتعاونه أن يفلت من شبكة الصياد .

(٣) Daremberg et Saglio : Dictionnaire des Antiques (Art. Columbarium).

(٤) Pauly-Wessowa : Real-Encyc. (Art. Brief-Taube).

(٥) يقول المؤرخ پلنى عن استخدام الحمام فى الحروب (Pliny: Naturalis Historia vol. 10, 110.) ما نصه :

quin et inter-nuntiae in magnis rebus fuere, epistolas adnexas earum pedibus obsidione Mutinensi in castra consulum Decumo Bruto mittente:

(٦) يتسائل : پلينى هذا السؤال فى اللاتينية (Ibid: vol 10, 110.)

quid Vallum et Vigil obsidio atque etiam retia in amne praetenta profuere Antionio per Caelum eunte nuntio ?

وأحب هنا أن أشكر الأستاذ درو والدكتور زيادة بكلية الآداب — جامعة فؤاد — على ما قدمه كل منهما إلى من معلومات هامة فى بناء هذا المقال .

أى ورقة أو رسالة صغيرة[١] .

على أن أول إشارة للحمام فى التاريخ الإسلامى هى قصة الحمامتين اللتين باضتا فوق غار ثور ، إبان هجرة الرسول ؛ ثم إنه من المعروف أن النبى أزال من الكعبة حينما حطم أصنامها بعد فتح مكة تمثالا لحمامة مصنوعاً من خشب النخل[٢] . وفى هاتين الإشارتين ما يدل على ما للحمام من شأن فى بلاد العرب الإسلامية ، وهى البلاد التى اشتهرت بكثرة الحمام فى وديانها منذ القديم .

واستخدم المسلمون الحمام في أغراض اللهو على عهد الخليفة عثمان بن عفان ، فكان الفتيان والماجنون يطلقون الحمام فى مباريات للسباق ، وكثيراً ما كان ذلك مجالا للمراهنة والمقامرة . واستخدم الفتيان الحمام كذلك وسيلة لإيقاع الأذى بالناس والجيران . إذ كان الحمام يرسل لفقء عين عدو أو تهشيم أنفه ، حتى ضج الناس من ذلك لأن المصاب لا يستطيع أن يقف على صاحب الحمام ويذهب الجرم دون « قَوَد ولا أرش[٣] » ، على قول الجاحظ . ولذلك أمر عثمان بمنع اللعب بالحمام ، وذبح أية حمامة تقع فى يد إنسان يعلم أنها أطلقت ابتغاء اللهو أو الإيذاء[٤] . على أن أول شاهد تاريخى على استخدام الحمام فى الدولة الإسلامية لنقل الأخبار فى العصور الوسطى يقع سنة ٢١٢ هـ (٨٣٧ م) ، إبان عهد المعتصم العباسى ، حين نقل الحمام إلى الخليفة نبأ القبض على الثائر بابك الخرمى[٥] . وحوالى ذلك الوقت أى خلال القرن الثالث الهجرى استخدمت إحدى الفرق السياسية فى الدولة الإسلامية الحمام الزاجل لأغراض الدعاية ، إذ نظم رئيس فرقة القرامطة بالعراق الحمام الزاجل ، واستخدمه على نطاق واسع لنقل الأخبار من جميع النواحى بالعراق قبل إذاعتها بين الناس ؛ وهكذا استعان هذا الرئيس القرمطى بالشعوذة وإيهام الناس بعلم الغيب وتقدير المقادير[٦] . وتفيض كتب الأدب المعاصرة

(١) ميخائيل بن الصباغ : مسابقة البرق والغمام ، ص ٨٨ ، حاشية ١ .

(٢) Joseph Hell: Die Kultur der Araber (Leipzig 1919), 28.

(٣) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ : أى دون قصاص أو دية عن الجراحات .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٩٢ .

(٥) المسعودى : مروج الذهب (مصر) ج ٤ ، ص ١١ .

(٦) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ (ترجمة أبو ريدة) .

لتلك الفترة بذكر الحمام الزاجل وأوصافه وتدريبه ، مما يحمل على الاعتقاد أن نقل الأخبار بالحمام فى القرن الثالث الهجرى سبقته دلالات عديدة على استخدامه فى الدولة الإسلامية الأولى ، ولعل البحث الحديث يكشف عنها الستار .

ومما يحمل على ترجيح ذلك الظن أن الجاحظ أحد العلماء المعاصرين للمعتصم وضع كتاباً عن الحيوان ، أسهب فيه الحديث عن الحمام وتدريبه ، وبيّن مبلغ اهتمام الناس فى العراق به وما وصل إليه فن تدريبه من رقى . وتفصيل ذلك أن الجاحظ قسم أنواع الحمام إلى حمام عادى وحمام رسائلى ، وذكر أن الحمام الرسائلى — وهو الزاجل — كان يختار حسب أسس وأوصاف معروفة ، ويراعى فى تدريبه أساليب مقررة . فكان يشترط فى ذلك النوع من الحمام اعتدال العنق واستدارة الرأس ، من غير عظم ولا صغر ، والحوق بعض الخوافى بعضها ببعض ، وقصر الساق والذنب . كذلك كان يراعى فى الحمام الزاجل صفاء البصر وثبات النظر ، وشدة الحذر وحسن التلفت ، وخفة النهوض فى الطيران والعلو فى الجو ، مع مد العنق وقلة الاضطراب ، وحسن القصد فى غير دوران ؛ وأتقن معرفة ذلك كله أناس فى العراق لانتقاء أجود أنواع الحمام الزاجل وأحسنها أصولا وأنساباً (١) .

أما تدريب الحمام فكان يبدأ بعد اختياره وانتقائه صغيراً ، فتحمل الفراخ جائعة إلى سطح إحدى الدور فى منتصف النهار ، وينثر الحبّ على السطح حول صارٍ فوقه علم . واشترط مدرب الحمام أن يكون العلم واضح اللون — فلا يكون أسود مثلاً — حتى يمكن الاهتداء إليه . وفى أغلب الأحيان كان إطلاق الفراخ بعد مدة من قص ريشها ، على أن تطلق مثنى أى زوجين زوجين ، بحيث تكون إحداهما أحدث قصا لريشها من صاحبتها . ثم يطلق المدرب الحمامة التى نما ريشها ، فلا تلبث أن تعود حنيناً إلى صاحبتها

---

(١) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٢ .

وكان الرومانيون كذلك يهتمون بمعرفة أنساب الحمام والمحافظة على أصوله ، وبرع منهم رجال فى حفظ أنساب الحمام . فيقول فى ذلك بلينى : ج ١٠ ، الفصل ١١٠ .

"super tecta exaedificant turris his, nobilitatemque singuarum et origines narrant."

قارن ذلك بما جاء فى الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

وبذا يضمن المدرب تأليف الحمام وعودته إلى أمكنة تدريبه وهى المزاجل . ولم يقتصر الأمر على المزاجل فوق الدور ، بل استخدمت السفن أحياناً لذلك الغرض تدريباً للحمام على الطيران عبر البحار . وكان من أهم أركان التدريب للحمام أن تصبح الحمامة وحدها قادرة على الرجوع إلى مصدرها ، وهو الذى اصطلح الجاحظ على تسميته « الغاية »[١] .

وكان التدريب يقوم فى ذلك الوقت على أساس أن الحمام يهتدى إلى « الغايه » بجودة الاستدلال ، والوعى وحب الرجوع إلى أربابه ، ولو كان الوقت ليلا . ومن أسس التدريب كذلك أن يلزم الحمام بطون الأودية التى يمر بها مهتدياً بانحدار الماء ، وإذا أعيته بطون الأودية ولم يدر أمصعد هو أم منحدر كان يستدل بالريح ومواضع الشمس فى السماء[٢] نهاراً والنجوم ليلا ، كما يقول الجاحظ .

على أن تربية الحمام الزاجل لم تقتصر على العراق فحسب ، بل اشتهر الإقليم الشمالى من الشام كذلك بتربيته واستخدامه فى نقل الرسائل ، فى القرن الثالث الهجرى . وتوضح هذه الإشارة أن العناية بالحمام الزاجل بشمال الشام أقدم كثيراً من زمن نور الدين والقرن السادس الهجرى ، فكان حصن الحجر الذى يقع فى جبل اللكام قرب أنطاكية وإقليم الثغور الشآمية حيث تقع المصيصة وطرسوس وأذنه ، تحفل برجال مهروا فى تدريب الحمام وتكلفوا فى سبيل ذلك التكاليف الكثيرة أيام الزجل ، أى تدريب الحمام فى الانتقال من مكان إلى آخر . وكانوا يدربون الحمام جماعات أو فرادى حسب الحاجة ، ويجتهدون فى المحافظة على أنسابها خشية أن يصيبها الضوى — وهو الهزال والضعف — إذا تقاربت أنسابها أو دخل على أعراقها سلالات خارجية أثناء تدريبها . وكانوا يعهدون فى فترة زجل الحمام إلى أشخاص موضع ثقة وأمانة وبعد عن الكذب والرشوة لمراقبة أعلام الغاية[٣] ، وتسجيل خطوات التدريب .

والخلاصة أن العناية بالحمام كانت ظاهرة منتشرة فى أرجاء العراق

---

(١) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ .
(٢) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢١٦ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٢١٣ .

والشام من القرن الثالث الهجرى ، وأن الخلفاء العباسيين وكبار رجال دولتهم ورؤساء الناس ولا سيما بالبصرة البعيدة عن مركز الخلافة ببغداد اقتنوا الحمام الزاجل لأغراضهم . وسرعان ما شاع استخدام الحمام الزاجل فى تلك البلاد بصورة ملحوظة ، منذ أوائل القرن الرابع الهجرى . ومن أمثلة ذلك أن الوزير حامد بن العباس أرسل سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) إلى الخليفة فى بغداد كتباً بواسطة الحمام تخبر بخروجه وتوجهه إلى العاصمة[١] ؛ وأشاع القرامطة هذا الخبر فى البصرة قبل وصول النبأ رسمياً إلى تلك المدينة بأربعة أيام ، ويعزى ذلك إلى أن القرامطة بتلك المدينة وصلهم الخبر فى رسالة جاءتهم على جناح طائر[٢] . كذلك أعدّ الوزير على بن عيسى سنة ٣١٣ هـ (٩٢٨ م) رجالا يحملون حماما إلى الكوفة ، لإمداد الخليفة المقتدر بأخبار القرامطة وأحوال الحرب ضدهم[٣] بجنوب العراق ؛ وعلم الخليفة بزوال خطر القرامطة عن الكوفة ، بفضل رسالة بعثها إليه أحد الكوفيين على جناح حمامة قبل أن يتمكن الحراس والمراقبون الموكلون من قبل الوزير على بن عيسى من نقل الخبر بواسطة الحمام الذى كان فى عهدتهم[٤] . وكانت الرسائل تصل إذ ذاك فى نظام وسرعة حتى إن الرسالة كانت تصل من الرّقة والموصل وواسط والبصرة والكوفة إلى بغداد فى يوم وليلة[٥] .

ويرجع استخدام الحمام فى مصر كذلك إلى ما قبل نور الدين ، إذ يقول ابن الأثير إن استخدام الحمام فى نقل المراسلات بلغ درجة كبيرة من التقدم والرقى فى عهد الفاطميين الذين استخدموا الحمام فى نقل الأخبار من سفن الاستطلاع[٦] التى كان يوكل إليها مراقبة حركات الأساطيل النورمانية التى دأبت على الإغارة على شواطىء إفريقية فى أواخر العهد الفاطمى . ففى سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) وقعت إحدى هذه السفن الفاطمية

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٥٨ .

(٢) عريب بن سعد القرطبى : صلة تاريخ الطبرى (ليدن ١٨٩٧) ، ص ١١٠ ، ١١١ .

(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم (مصر)، ج ٥، ص ١٧٩ .

(٤) آدم متز : الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٥٨ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٣٥٨ .

(٦) كان الفينيقيون القدماء يستخدمون الحمام لربط سفنهم بقواعدهم الثغرية فى حوض البحر الأبيض الشرقى . انظر (Brief-Teube) : Paule-Wessowa

التابعة لأسطول المهدية فى يد المدعو جرجى أمير البحر على الأسطول النورمانى الصقلى عند جزيرة قوصرة (تسمى الآن بانتلاريا ، وتقع بين المهدية وصقلية) . وباستجواب بحارة هذه السفينة وجد جرجى فى حوزة أحدهم قفصاً به حمام . وبعد أن تأكد أمير البحر النورمانى من بحارة المهدية أنهم لم يطلقوا أية حمامة من القفص ، أمر البحار صاحب القفص أن يكتب رسالة يخبر فيها حاكم المهدية أنه لقى عند جزيرة قوصرة بعض مراكب للنورمان ، وأنه سأل عن حركات أسطولهم ، فعلم أنه فى طريقه إلى القسطنطينية. ثم أطلق امير البحر حمامة بتلك الرسالة إلى المهدية ، وأراد من وراء ذلك القيام بهجوم مفاجىء على العاصمة التونسية وقت السحر . ونجحت تلك الحيلة إذ اطمأن حاكم المهدية ، ولم يتخذ أية احتياطات لدرء الهجوم النورمانى ، لكن رياحاً مضادة أفسدت تدبير أمير الأسطول النورمانى الذى وصل إلى مياه المهدية فى وضح النهار(١) .

وإذا كانت الرواية السابقة تكشف عن مبلغ ما وصلت إليه البحرية الفاطمية من تقدم فى استخدام الحمام ، لربط الأسطول بقواعده البرية ، والحصول على معلومات من أجل الدفاع واتخاذ الاحتياطات ، فإن تلك الحقيقة تبين أن استخدام الحمام فى الحركات البحرية ليست إلا نتيجة تطور فى أساليب تدريب الحمام فى نقل المراسلات البحرية ، وما يتطلبه ذلك من محاولات ترجع منطقياً إلى فترة سابقة لآخر عهد الفاطميين . ولقد اتضح من إشارة سابقة أن أهالى العراق كانوا يدربون الحمام براً وبحراً على نقل المراسلات ، قبل زمن الفاطميين بكثير .

وتوجد إشارات دالة على استخدام الفاطميين للحمام فى نقل الأخبار بين أجزاء إمبراطوريتهم ، ففى القلقشندى أن اليازورى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى أرسل حماماً من تونس إلى مصر(٢). كذلك كان يوجد خط بريد يربط الشام بمصر بواسطة الحمام ، ويدل على ذلك أن الخليفة العزيز الفاطمى ذكر لوزيره ابن كلس أنه لم ير القراصية البعلبكية منذ أمد طويل ، فأرسل الوزير حمام دمشق الذى كان إذ ذاك موجوداً بالقاهرة إلى حاكم العاصمة

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥١ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٠ .

الشامية يأمره أن يطلق فى حمام القاهرة الموجود بمدينةدمشق حبات قراصية ؛ وقبل أفول شمس ذلك اليوم كان الحمام القاهرى قد وصل حاملا القراصية(١) .

والحاصل أن استخدام الحمام فى مصر والعراق والشام ظاهرة تسبق عهد نور الدين والدول الإسلامية، وربما تكشف الأبحاث التاريخية أن أباطرة الدول الرومانية كانوا يستخدمون الحمام فى مراسلاتهم إلى عمالهم فى مصر وغيرها من الأقاليم ، على نسق ما تقدمت الإشارة إليه بصدد أنطونيوس الرومانى ، وربما كشفت الأبحاث التاريخية كذلك أن الدول الجرمانية فى غرب أوربا ورثت ذلك النظام فى نقل الرسائل عن الدولة الرومانية .

إبراهيم أحمد العدوى

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٣٩١ .